د. الطاهر دراع *

المجتمع العربى بين أهل الوبر وأهل المدر

لقد كانت النظم السياسية والعسكرية والاقتصادية لدى العرب القدامى حصيلة تفاعل مستمر بينهم وبين البيئة الطبيعية التى عاشوا فيها منذ ظهور التجمعات الإنسانية فى تلك البقاع الحارة فقد أذعنوا لشروط بيئتهم وتكيفوا معها وتلاءموا مع حاجتهم الاجتماعية الضرورية فى أول الأمر ثم الكمالية فى مراحل متقدمة.

نعم لقد تميزت ظروف المعيشة الاجتماعية فى شبه الجزيرة العربية على مدى قرون موغلة فى القدم بالقسوة والإملاق ، سماء شحيحة بالغيث ، وبيئة مناخية حارة متوهجة، وأرض صحراوية قاحلة فى أغلب أرجائها ، فأوجب كل ذلك أن تكون الحياة الأولى والأساس عندهم البداوة خاصة لدى عرب الشمال .

المبحث الأول : المجتمع البدوى : تعنى البداوة قديما وحديثا الحياة القبلية المتنقلة ، أما الأعرابى فهو المتبدى أى الذى سكن البادية وعاش معظم حياته فيها مكتفيا باتخاذ شريكة له قاطعا البوادى الجافة التى يقل فيها سقوط الأمطار [1]، إذ أن طبيعة البيئة الصحراوية تجبر سكانها على العيش فى حياة قاسية يعانون خلالها من الحر والجفاف وقلة الماء والكلأ وعدم الاستقرار فى مكان واحد ، مما اضطرهم إلى التنقل والترحال عبر المساحات الشاسعة المكسوة بالرمال المتحركة الخطيرة بنسائهم وأطفالهم وأمتعتهم وخيامهم المتواضعة وحيواناتهم من إبل وضأن وغيرها من الحيوانات بحثا عن غدران وآبار الماء ومساقط ومنابت العشب والكلأ .

---

* أستاذ محاضر – قسم التاريخ – كلية العلوم الانسانية والعلوم الاسلامية – الجامعة الافريقية العقيد "أحمد ادراية" – ادرار – الجزائر

ولما كانت مناطق العرب الخضراء محدودة فقد كانت تتنازع فيما بينها علـــى الـــدوام للفوز بهذه المنطقة أو تلك ، فتنشأ بينها سلسلة من العداوات تنجم عنـــها سلســـلة مـــن الثأرات.

ونحن نعرف أنه كلما كان الناس فى حاجة إلى عناصر الحياة الأساسية كلما ازداد التنافر بينهم، وكلما توفرت لديهم ظروف الحياة الكريمة كلما قلت المنازعات والخلافات والعداوة وضعف عنصر الشر فيهم فتغلب عليهم الخير وانتشر الأمن والاستقرار والوئام بينهم.

و انطلاقا من هذا التصور قامت الحياة القبلية فى البادية العربية على أساس التضامن بين أفراد العشيرة أو العشائر ، التى تنتمى إلى قبيلة واحدة حتى تستطيع الصمود أمام القبائـــل الأخرى التى تنافسها ، بسبب غياب المصلحة المشتركة و الوحدة السياسية بين القبائل.

ويقوم التنظيم الاجتماعى عند البدو و الحضر على حد سواء على نظام القبيلة حســـب تطور كل الشعوب البدوية الاغريقية الأوائل و الرومان فى بدء عهودهم و التتار و المغـــول كانوا جميعا ينقسمون إلى قبائل ، وانعدام الارتباط بأرض معينة لأن الحرية عندهم ترفض كل سلطة مركزية قد تقيد من حريتهم .

وللبداوة فى الصحراء قوانين عامة لا تقل شأنا فى وضعها وتنظيمها عن قوانين الحياة فى المدن .

ومعظم مظاهر التنظيم القبلى هى مظاهر عامة مرتبطة ببداوة كل أمة ثم قد تتخلى عنها الأمة بعد تطورها إلى المرحلة المدنية ، فيصبح تنظيم المجتمع إما على أساس الفرد الحر كمـــا هى الحال عند اليونان أو على أساس العائلة كما نجد ذلك عند الرومان أو على أساس الاله كما كانت فى مصر القديمة عند الفراعنة .

القبيلة : تستعمل كلمة " قبيلة " بالمعنى العام الاصطلاحى ،لأنها اسم خاص لأحد أقسام المجتمع البدوى الذى تفوق على الأقسام الأخرى، فهناك ما هو أكبر وأشمل منها وما هـــو أصغر منها ، ومن الأمثلة عل هذا الترتيب نعتمد التقسيم الآتى :

الشعب : مثل "عدنان ، والقبيلة مثل ربيعة ومضر " ، والعمـــارة مثـــل : "قـــريش" والبطن مثل : "عبد مناف ومخزوم " ، والفخذ مثل : "بنو هاشم وبنو أمية، والفصيل مثل : " بنو طالب" .

وكانت الرابطة القبلية تقوم على الدم والنسب لا على العقيـــدة والمدنيـــة ، وتظهـــر العصبية القبلية قوية فى أقوالهم "انصر أخاك ظالما أو مظلوما"، وقد استدلوا على ذلك بقول آخر : " لايسألون آخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهان ؟" .

والقبيلة العربية تشبه القبيلة الكورسيكية فى تنظيمها إذ نجد رئيس القبيلـــة أو شـــيخها يصل إلى زعامتها إما بالنسب أو بالغناء أو بالشجاعة أو بسداد الرأى . وكانـــت ســـلطته مطلقة على أفراد المجتمع القبلى إلا فى بعض الأمور مثل أمور الحرب والقضاء ، حيث كان ينظر فيها بالاشتراك مع المجلس القبلى المؤلف من كبار أفراد القبيلة ، ونجد لشيخ القبيلـــة حقوق الرئاسة .

أما العائلة فى القبيلة فيحكمها ربها الذى يعتبر مثل الجندى لايملك سوى بيته المنســـوج من الشعر أو الوبر ، وهو ذو سلطة مطلقة على أولاده حتى الوأد وحرمان الـــبعض مـــن الإرث، وله الحق فى الخلع والتبرؤ من بعض أولاده ، كما له الحق فى الطلاق والزواج مـــتى شاء .

أما الفتيان فلم تكن القبيلة تعترف برجولتهم ، إلا بعد حفلة تكريس فى مراسم كـــان يقوم الشيوخ فى مجلسهم ، فيقلدون الفتى السيف رمزا لإضافة محارب للقبيلة ، وكـــذلك الفتيات كن يكرسن بإلباسهن دراعة بدل المؤصد .

ولعل هذه الاحتفالات التى كانت تقام للشباب والفتيات كانت ذات طـــابع ديـــنى ، وكانت القبيلة تحتضن الموالى عن طريق الولاء ، وهناك العبيد الذين قد ينسبون إلى قبيلة ما – إما عن طريق الشراء أو الأسر فى الحروب أو لتسديد دين .

أما أهل الحضر المستقرون فى الواحات فلم يكن التنظيم الاجتماعى يختلف عن تنظـــيم الأعراب القديمة سوى أن الملكية عندهم كانت موطدة ، بينما كان المرعى والمـــاء والكـــلأ مشاع بين جميع أفراد المجتمع البدوى .

المبحث الثانى : العناصر المكونة للقبيلة :

كانت القبيلة العربية تتألف من عناصر كثيرة وهى :

١– الصرحاء : وهم أبناء القبيلة الذين يجرى فى عروقهم دمها النقى ، وينحدرون

من الجد الذى تنتسب إليه ، ومن ثمة فهؤلاء هم الذين يسودون القبيلـــة [٢]، ويؤلفون بيوتات الشرف فيها، وهم دعامتها وكانوا يستجيبون لتلبية نداءاتها والتضامن معها ظالمة أو مظلومة ، وبالمقابل كانت القبيلة توفر لهـــم حمايتـــها وتمنحهم حق التصرف ، ولكنها لا تبيح لهم الخروج عن عاداتها وتقاليـــدها ، فإذا سلك الفرد فيها سلوكا سيئا يشين إلى سمعة القبيلة ، ويجلب إليها العـــار نبذته ، وعندئذ قد يلجأ إلى قبيلة أخرى [٣].

٢- أبناء القبيلة بالنقلة : لقد كان جائزا أن ينقل رجلا نسبه من قبيلة إلى قبيلـــة أخرى فيصبح من أفرادها [٤] .

٣- الاستلحاق : وهو أن يستلحق الإنسان شخصا فيلحقه بنسبه ويجعله فى حمايته ورعايته أى فى عصبته ، وقد يكون الرجل صريحا معروف النسب ، وقد يكون أسيرا أو مولى ، أو عبدا فيسميه مولاه ، وينسبه إليه ، فقد تزوج القبيلة عبدا من عبيدها امرأة من القبيلة فيصبح بمرور الزمن فردا منها ، يحمـــل نســـبها وواحدا من أفرادها وذلك لأنه قد ارتبط برابطة الزواج .أمـــا ابـــن القبيلـــة الصريح الذى تزوج زواجا شرعيا او بجارية من جواريات الخيـــار ، إمـــا أن يلحق أولاده بنسبه أو لا يفعل ذلك ، وإذا فعل وألحقهم بنســـبه أصـــبحوا يحملون نسب القبيلة [٥].

٤- الموالى : لقد وردت كلمة "المولى" بمعانى عديدة أهمها بالنسبة لهذه الدراسة أن المولى : يقصد به العبد أى المملوك ، الذى يمن عليه صاحبه بأن يفك رقبتـــه فيعتقه ، ويصبح المملوك بذلك مولى لسيده الذى فك رقبته، والموالى أنواع ، وجاء فى لسان العرب : "المولى الحليف هو من انضم إليك فعز بعزتك وامتنع بمنعتك ... والمولى المعتق انتسب بنسبك" [٦].

والموالى العصبة نوعان :

أ- مولى يرث ويورث : وهم ذووا الأرحام .

ب- مولى لايرث ولايورث : وهؤلاء الفئة المعتوقة [٧].

وأما موالى عتاقة فهو الرقيق أو العبيد أو الأسير ، الذى فكت رقبته بعتقه فقد يشـــترى الرجل مملوكا ثم يعتقه .

وكان العرب القدامى يشترطون على الموالى إنجاز عمل معين ، فإن قاموا به على أحسن وجه عتقوهم ومن الموالى : مولى المكاتبة ، وهو أن يشترطا فى عقد البيع أن العقد يكاتب على نفسه بثمن محدد فإذا سعى ودفعه لمالكه أعتقه وأصبح حرا ، والأصل فى ولاء المكاتبة أن من أعتق عبدا كان ولاءه له ، فينسب إليه وإذا مات كان وريثه ، وقد لايتحول الولاء للولى ، بلى لمن يؤدى ثمن المكاتبة مثلا، وقد يعتق على ألا ولاء عليه فيحق له عندئذ أن يضع ماله [٨]. حيث يشاء ، ومن أسباب العتاقة التدبير وهو أن يعلق المالك عتق مملوكه ، وذلك بعد موته فيقول له : "أنت حر بعد موتى وبذلك فلا يرثه أهله" [٩].

أما مولى العقد فيقال له : " مولى حليف ومولى اصطناع ، ويتم بإتباع رجل إلى رجل آخر ، بعقده أو قبيلة إلى قبيلة أخرى ، وهذا الانتماء انتماء ضعيف إلى انتماء شخص أو قبيلة ضعيفة أو إلى شخص أو قبيلة قوية فيكون التعاضد ومساعدة القوى للضعيف فى شتى المجالات ، ومقابل ذلك يقوم المولى بأداء ما اتفق عليه من شروط ، وينتسب المولى عندئذ إلى سيده الجديد ، ومن الأمثلة على هذا ما حدث ليهود يثرب الذين كانوا فى ولاية الأوس والخزرج ، فأذا ما وضع عليهم ضيم لجئوا إلى من انتموا له بالولاء للدفاع عنه .

هكذا فإن الموالى إحدى الفئات الاجتماعية من العتقاء الذين اعتقهم ساداتهم من العبودية وظلوا مرتبطين بهم رابطة الولاء .

وبناءا على ما جاء فى روايات أهل الأخبار [١٠]، فإن عدد موالى قريش كان كبيرا أو أنهم كانوا يشكلون نسبة كبيرة من مجموع مكة ، وقد أعطت قريش مكانة لهؤلاء الموالى تماشيا مع سياستها التى قامت على تنشيط التجارة والاستفادة من جهود هذه العناصر وخبرتها .

والحق لقد أخلص بعض هؤلاء الموالى ساداتهم قريش وقاتلوا فى صفوف المجتمع أو قريش ضد يثرب ، وأغلب هؤلاء الموالى كانوا ممن ارتبطوا بقريش عن طريق الحلف [١١]، وقد تحصل بعض الموالى فى مكة على ثروة طائلة وأسهموا فى حياة البلد ، عامة وتمتعوا بمكانة رفيعة وبنفوذ كبيرة فى المجتمع المكى مثل : "الأخنش بن عمر الشريف بن وهاب الثقفى" ، الذى أثر على حلفائه من " بنى زهرة " فأقنعهم بالرجوع وعدم المشاركة فى موقعة "بدر" عندما اجتمعت قريش على الخروج لقتال المسلمين فرجع بنو زهرة مع بنى الأخنش [١٢].

٥- الداعى : يقال للمستحق داعى وهو منسوب إلى غير أبيه وقد كانت هذه الفئة موجودة فى المجتمع العربى كإحدى العناصر المكونة للقبيلة ، وحكم الداعى من الناحية القانونية هو حكم النسب الصحيح والبنوة الشرعية عند العرب القدامى ، إذ كانوا يورثونه كما يورثون الأبناء الأصليين [١٣].

ويقال للداعى اللصيق وهو مقيم فى الحى وليس من أبناء القبيلة ويقال للداعى المخضرم وهو من لايعرف أبوه أو أبواه ، ويقال له فى النسب هو من أل فلان ، وينتهى النسب بجد القبيلة الأكبر ، فيكون هذا الجد محور النسب والعصبية القبلية .

٦- الخلعاء : الخليع أو الطريد هو الفرد الذى تبرأت منه قبيلته نتيجة تمرده على أعرافها أو ارتكابه جريرة ترفض القبيلة أن تتحمل نتائجها ، وفى ذلك يقول ابن منظور[١٤]: "الخليع الرجل يجنى الجنايات يؤخذ بها أولياءه فيتبرؤون منه ومن خياناته فيقولون : "إنا خلعنا فلان فأخذ أحد بجنياته تجنى عليه ولاتأخذ بجناياته التى يجنيها".

ويتم إعلان الخلع رسميا على أفراد المجتمع فى المواسم والأسواق العامة وقد يبعثون مناديا لذلك أو يكتبون كتابا فكان الرجل يأتى بابنه إلى الموسم فيقول : "ألا يأتى قد خلعت ابنى هذا فإن جر لم أضمن وإن جر عليه لن أطلب" فلا يؤخذ الأب بجريرة ابنه الخليع ، ومن ثم تتخلى عنه قبيلته وتتبرأ من أعماله وتسقط حقوقه عليها ويحرم عليه البقاء فيها فيذهب ملتجأ إلى غيرها ، وأما إذا كانت شروره كثيرة فنادرا ما يلقى مجيرا له ، ويصبح الأمر خطيرا بالنسبة لوضعيته الاجتماعية ، إذ يجد نفسه فى موقف حرج ووضع شاذ [١٥]، ومن الأمثلة على ذلك : أن قبيلة خزاعة خلعت "قيس ابن الحدادية " وأعلنت ذلك بسوق عكاظ وأشهدت على نفسها بخلعها إياه [١٦].

وكان بعض الخلعاء يلجئون إلى من يحميهم ويعيشون فى جواره .

ومن أسباب الخلع ما يأتى :

١- إذا قتل فرد "ما" شخصا أخر من قبيلته ، ورفض ذوو المقتول قبول الدية ، عندئذ تصبح القبيلة المتمثلة بشخص زعيمها مضطرة إلى قتل القاتل . أو خلعه حفاظا على وحدة القبيلة .

٢- لما كانت القبيلة مسؤولة عن أعمال أفرادها فإنها قد تضطر أحيانا إلى خلع من يسئ منهم إليها بكثرة اعتدائه وجرائره ضد القبائل الأخرى التى تحملها أفعاله على شن الغارات الثأرية ضدها مفضلة أن تضحى بفرد بدلا من جماعات منها ، وتخلع القبيلة كل من يلحق بها العار بأعماله اللاأخلاقية المشينة التى تعتبرها وصمة عار فى جبينها .

وقد يتكتل الخلعاء فيؤلفون عصابة تقطع الطرق وتعيث فى الأرض فسادا تسلب وتنهب وتلقى الرعب فى النفوس ، وقد شاعت تسمية هؤلاء باسم الصعاليك الذين سوف نتطرق إليهم بالتفصيل فى دراسة الطبقات الاجتماعية عند العرب .

وتذكر الروايات أن هؤلاء قد اشتهروا الخلعاء بالشجاعة والإقدام وعدم المبالاة بحيث كان بعض الرؤساء والزعماء يستخدمونهم للفتك بخصومهم .

وقد انضم قسم منهم إلى الشاعر " امرؤ القيس الكندى" عندما نهض مع قبيلة بكر للأخذ بثأر أخيه من قبيلة أسد ، كما كانت هذه الفئة قد تخلت عن العصبية القبلية لاتفرق بين قبيلتها وبقية القبائل الأخرى من حيث الإغارة والسطو على الأموال .

وكانت تتمركز فى المناطق المجاورة للأسواق التجارية وفى طرق القوافل فيعملون على السلب والنهب لها [١٧]، ومنهم أبو الصعاليك العرب "عروة بن الورد " و " "الشنفرى" ، و "تأبط شرا" ، السليك بن السلكة " .

وهكذا فإن الخلع فى المجتمع القديم أشبه ما يكون بإسقاط الجنسية عن المواطن فى عصرنا الحالى ، فهذه أهم العناصر المشكلة للقبيلة .

جد القبيلة : كان لكل قبيلة جد تنتمى إليه وتفاخر به ، فقد يكون هذا الجد إنسانا حقيقيا وقد يكون حلفا قد تكون من عدة قبائل مثل قبيلة تنوخ[١٨]، وقد يكون اسم موضع أقامت فيه القبيلة ونسبت إليه مثل "غسان" ، وقد يكون اسم حيوان أو نبات ... الخ ، وهذا شئ مألوف وجد عند الشعوب القديمة وليست بدعة ابتدعها العرب وحدهم فالذى وصلنا من الاخباريين عن أزمنة أجداد القبائل فيه أخطاء وأوهام ، وفى ذلك يقول المستشرق "بلاشير"[١٩] Placher : " إن طريقة النسابين بالنسبة للأرهاط هى طريقة إيجابية مقبولة ، أما بالنسبة للقبائل والأحلاف فلا تستند إلى أسس صحيحة ، ويعود السبب فى ذلك إلى اسباب تحالف للقبائل وتكتلها ، هذه الأسباب ترجع فى أساسها إلى المنافع السياسية والمصالح

الخاصة ، إذن فهى تتغير بتغير تلك المصالح فتتولد بذلك أحلاف موجودة وتموت احـــلاف قديمة ، وتظهر قبائل كبيرة ويموت غيرها ، ولهذا التغير فعل قوى فى تكوين الاســـباب وفى نشوئها إذ تتبدل وتتغير الأنساب تبعا لذلك التغير من ثم لايمكن الاعتماد علـــى الأنســـاب الكبرى ، التى دونها علماء النسب وخصوصا فى مجموعات وشجروها حفدة وآباء وأجداد".

والمصالح السياسية للقبائل لاتقيم وزنا للأخوة والنسب ، فاذا ما اختلفـــت المصـــلحة يحصل أو يتم الانفصال ولاتجد القبيلة عند ذلك من غضاضة فى ترك قبيلـــة وإحياءتحـــالف جديد مع قبيلة أخرى غريبة عنها فى النسب ، فقبيلة "بنى عبس" مثلا تحالفت مع قبيلة "بنى عامر" فى حرب البسوس ضد قبيلة "ذبيان" وهى أخت عبس ، وتحالفت ذبيان مع قبيلة تميم على عبس [٢٠]، وهكذا وقعت حروب بين أبناء القبيلتين الأختين بسبب اصطدام المصالح .

المبحث الثالث : شيخ القبيلة : نتاول فى هذا المبحث الرئيس الأعلى للقبيلة ومهامه فى إدارة شؤونها والصفات الواجب توفرها فيه ومكانته الأدبية بين أفراد القبيلة .

لقد كانت رابطة الدم والنسب تهيمن على العلاقات القبلية والعصبية المتطرفة والمتجدرة تتحكم فيها ، فهاتان القاعدتان الأساسيتان أساس الترابط الاجتماعى القبلى عند العـــرب فكانتا تسيطران على التنظيم السياسى للقبيلة على الصعيدين الداخلى والخـــارجى فعلـــى المستوى الخارجى : يحددان طبيعة العلاقات مع سائر القبائل المتواجدة فى شبه الجزيرة العربية وخارجها .

وفى الداخل : يكفلان عدم التنازع والتناحر ، لذلك كانت الحاجـــة ملحـــة فرضـــتها ضرورة الحياة الاجتماعية والسياسة وهى ردع الاعتداء ومنع وقوعه وحسن معالجته إذا وقع سواء بالمصالحة أو بمبدأ الأخذ بالثأر وهى ضرورة لولاها لأصبحت البادية العربية دار حرب دائما ومواطئ خلاف قائم ، وانسجامًا مع التوجه وتلبية الحاجات ومصالح المجتمع القبلى ، كان اللجوء إلى قوة تنتقم للفرد من عدوه أو تلزمه على دفع الدية اللازمة المقررة عليه[٢١].

ومن هنا كان اللجوء إلى شخص يعمل على إحقاق الحق والفصل فى الخصومات وفقـــا للتقاليد المراعية الإجراء ، فظهر شيوخ القبائل ، حيث كانت ضرورة العيش تفرض علـــى المرء الخضوع إلى المبادئ والتقاليد القبلية ووضع حد للعدوان غير أن هذه المبادئ مهما بلغ الالتزام بها لابد من تواجد قوة ذات سلطة تعمل على تنفيذها ، هذه القوة السلطوية يخاف

الجميع قوتها وبطشها ويلتمسون منها تفسيرا لرهبة الظواهر المسماة لديهم بالقوة الخفية أو المجهولة ، وهى ما وقف حائرا وخائفا منه ولم يجد سبيل خلاص له إلا بشخص قوى فكان الشيخ ، فمن هو الشيخ ؟ هل هو الملك الحاكم ؟ الواقع أن العرب لم يعرفوا هذه التسمية التى كانت تطلق على الحاكم فى كل من الدولتين الفارسية والبيزنطية ، أو سائر الدول المعروفة آنذاك وانتصرت تسمية المالك عندهم على الشعراء والخطباء ، فالشيخ إذن حسب مفهومهم هو الرئيس الأعلى للقبيلة ، هو سيد القوم المقدم على جميع أفرادهم لما يملك من وقار الشيخوخة وتقدم السن ولما يتحلى به من صفات الزعامة والقيادة .

ولعل فى طليعة هذه الصفات انتماءه إلى عصبية تؤديه وتمنعه إضافة إلى صفات شخصية يجب توافرها فيه كالجرأة والقوة والحزم وهى صفات يستحيل على ابن الصحراء فرض سلطانه وسلطته على سواه ما لم يكن متحليا بها على أن لايعنى أن فرض السلطان والسلطة قد أدى إلى الرهبة والخوف من قدرات الشيخ على نحو ارتفع بهم إلى مستوى فوق البشر مستوى الآلهة فى هذا المجتمع البدائى .

وهكذا لم تعرف شبه الجزيرة العربية نظرية تأليه الحاكم كما كان شأن مصر القديمة يوم قدست الفرعون الحاكم المستبد وأطاعه الناس خوفا من بطشه وطغيانه فكان مضرب مثل للظلم والطغيان كما جاء فى القرآن الكريم أو كما عرفته الهند القديمة أيام حكم أبرها وشريعة مانو [٢٢] .

إن ما نريد تأكيده هنا نظرية تأليه الحاكم لم تعرفها شبه الجزيرة العربية كما عرفتها سائرالشعوب البدائية حيث لم يقتصر الأمر على مصر القديمة أو الهند بل تعدت معرفة هذه النظرية إلى شعوب متعددة كالصين وبلاد ما بين النهرين،عندما كانت الدولة البابلية والآشورية والكلدانية ومن قبلهاالسومرية والأكادية وكلها شعوب عرفت تأليه الحكام[٢٣] .

نخلص إلى القول أن ثمة ضرورات أوجدت على رأس النظام القبلى زعيم القبيلة أو رئيسها وهو ليس بملك ولا بإله وأن الأساس الذى تبنى عليه سلطته هى التقاليد القبلية من عصبية وتقديم خدمات ومنافع متعلقة بالأوضاع المعيشية للقبيلة وأفرادها بجانب صفات شخصية يقتضى توافرها ليتمكن بها من الغلبة على منافسيه والسيطرة على الجميع .

إنها سلطة نظام الحكم الأبوى(Regime Patriarcal) القائم على سلطة الأب على جميع أفراد الأسرة ، هذه السلطة يبقى متمتعا بها ما دام قويا قادرا على ضمان ولاء القبيلة لـــه ، أما إذا ضعف وعجز ، اجتمع الأعيان والرؤساء ،سواء كانوا من أفخاذ القبيلـــة أو مـــن بطونها[٢٤] ، لاختيار خلفا له ، وليس ثمة مانع أن يكون ابن هذا الشيخ إذا تـــوفرت فيـــه الشروط التى أشرنا إليها سابقا . غير أن تحولا قد طرأ على هذه السلطة فى أواخـــر هـــذه المرحلة التاريخية ، "فبعد أن كانت مستمدة من التقاليد القبلية وحدها أصـــبحت تســـتمد بدرجة أهم من المكانة الاقتصادية التى يستطيع بها الغلبة على منافسيه والسيطرة على أفراد القبيلة بتقديم المنافع المادية والخدمات المعيشية ، ومن هنا ازداد اهتمـــام رؤســـاء القبائـــل بممارسة كل ما يؤدى إلى تكديس الأموال وإنماء الثروات" [٢٥] .

صفات شيخ القبيلة : لقد اعتمد العرب فى اختيارهم لشيخ القبيلة على مواصـــفات يجب توفرها فى شخصه ، فكان يجب على من يريد أن يكون شيخًا أو ســـيدًا للقبيلـــة أن تتكامل فيه ست خصال : الكرم والنجدة والحلم والصبر والتواضع والبيان [٢٦].

وقد سئل قيس بن عاصم : "بما سودك قومك ؟ " فأجاب : " ببذل الندى وكف الأذى ونصرة المولى وتعجيل القرى".

ويجب أن يتحلى بأخلاق حميدة وسجايا طيبة تجعل الناس يعترفون بسيادته عليهم .

وليست قيادة القبيلة بأمر سهل عليهم ، لاسيما إذا كانت قبيلة كـــبيرة ذات عشـــائر وارهاط منتشرة ، وإن يكون شريفا فى أفعاله حليما كريما يغض نظره عن أعمال الحمقـــى والجهلة ويتجاهل السفلة والسفهاء الجاهلين ، فلا يغضب ولايثور وإن يقضم غيظه جاء فى المثل : "احلم تسد" ، وأن يحترم الناس مهما كانت منزلتهم وأن يؤلف بينـــهم ويكســـب محبتهم ويجعل بيته بيتا للجميع ومضيفا لكل من يفد إليه من كبير أو صـــغير أو حقـــير وأن يفتح قلبه للجميع [٢٧].

وعلى الرئيس أن يكون فى مقدمة القوم فى الحروب والغزو وأن يكون شجاعا لايهـــاب الموت حتى يكسب النصر لنفسه ولقومه ، وعليه أن يكون قائد قبيلته وواضع خطط الحرب لأنه رمز القبيلة ورمز النصر وباعث الهمم في نفوس ابنائه وهو أب القبيلة والرئيس ، وهـــو روح القبيلة وشعلرها وهو من أصحاب الإرادة القوية .

وتتم الرئاسة بانتخاب حر بين الأفراد ، حيث أن العرب كانت ترفض مبدأ الوراثـــة فى الرئاسة ، ولابد للرئيس من عصيبة داخل العشيرة وقرابة تشد أزره وتعينـــه علـــى تنفيـــذ مسؤولياته ، ومثل هذا السند يعتمد على القوة العددية – كما ذكرنا من قبل حســـب رأى العلامة ابن خلدون – وعلى الحسب والشرف وعلى نقاوة الدم أيضا ، ولهذا لاتتم الرئاسة إلا للأصول ويحرم منها الموالى لعدم نقاوة الدم .

مجلس القبيلة : كان لكل قبيلة عند العرب القدامى مجلسًا هو بمثابة "الندوة" عندهم ، يستطيع كل فرد من أفراد القبيلة حضوره والتحدث فيه متى كان مجتمعا وليس هناك وقت محدد لاجتماع المجلس، ولكن من المألوف أن يجتمع القوم يوميا عند المساء أو ينادى فى الناس للاجتماع إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك .

فالمجلس فى المجتمع البدوى كالبرلمان فى عصرنا الحاضر الحديث والذى يدرس فى المجلس يتعلق غالبا بمختلف الشؤون الخاصة ، فيبحثون الأمور التى تخص القبيلة ولهم الحق فى إبداء وجهة نظرهم ، فى الغالب ما كان يسود أقوياء الرأى والتفكير ، الذين يمتلكون المنطق وقوة الحجة فى المناقشات ، وكان هذا مدعاة لهم للافتخار والاعتزاز .

وفى هذا المجلس ينشد الشعراء أشعارهم ويظهر الخطباء مواهبهم ، ويســـمع الجميـــع الأحاديث الطريفة الطيبة فيصبح المجلس ندوة أدبية يتمرن فيها الأفراد على قوة البيـــان ، وتكشف أثناء ذلك المواهب الأدبية والسياسية ، والقرارات كانت تتخذ بعـــد المناقشـــات والمحاورات بأصوات الأغلبية وغالبا ما كانت ترفض المعارضة هذه القرارات فلاتلزم بهـــا، لأنه ليس هناك قانون يلزمها بذلك ، فإن اقتنعت بها استجابت لرأى الجماعة وإن لم تقتنع بها أبتتطبيقها .

القبيلة والأرض : إن الأرض التى تنزل بها القبيلة والتى تعيش عليها تعتبرها ملكا لها ، تنتشر فيها بطونها وعشائرها فلاتسمح لغريب بالنزول بها أو حتى المرور فيها إلا بموافقتها ، وكل بطن منها اختص بحماية ناحية من الأرض واعتبرها أرضا خاصة بـــه وتســـمى الأرض التى تحل بها القبيلة منزلا لها ، ومنازل لأبنائها ، حيث ينزلون بها ويضربون خيامهم فتصـــبح الأرض وطنا لهم ودار إقامة ما دامت تقيم عليها ، لذلك يعبر عن الأرض هـــذه بمصـــطلح "بيوت القبيلة" أو بيوت العشيرة".

تمتد أرض القبيلة إلى المواضع التى تصل بيوتها إليها فما يقع إلى الداخل فهو من مواطن القبيلة وما وقع خارج نفوذ القبيلة خرج عن موطنها .

وكانت تعين الحدود بالظواهر الطبيعية البارزة مثل أودية ، أو رمال أو غـــير ذلـــك ، ونظرا لعدم إمكانية تثبيت مثل هذه الحدود صارت سببا من أسباب النزاع المســـتمر بـــين القبائل .

أما مواضع الماء فى القبيلة فقد تتفق البطون فيما بينها على حقوق السقى الذى يـــؤدى إلى نزاع فى أكثر الأحيان ، إذا لم تراع فيه هذه الحقوق ولاسيما فى أيام القحط وانحبـــاس المطر ، حيث المياه العامة ، أما المياه الخاصة للسادة والرؤساء فلايجوز الاســـتفادة منـــها إلا باذن من أصحابها .

ولكل قبيلة حق حماية فإذا أراد رجل غريب اجتياز أرضها فلابد من أن يكون فى حماية إنسان منها ، وإذا كان المجتاز جماعة أو قافلة تريد المرور بأرض القبيلة بغيـــة الوصـــول إلى هدف فعليها أخذ إذن (جواز مرور) وإلا تعرضت للمنع والقتل إذ كان لابد للتجار مـــن إرضاء سادت القبائل للسماح لهم بدفع حق المرور الذى عرف – بالإتاوة .

الهوامش

١- الزبيدى ، ج٣ ، مادة "بدو" ص٥٣٤ .

٢- عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص١٥٠ ؛ توفيق برو ، المرجع السابق ، ص٢٥٧ .

٣- نفسه .

٤- توفيق برو ، المرجع السابق ، ص٢٥٧ .

٥- الأصفهانى : المصدر السابق ، م١٧ ، ص٩٧ ؛ عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، المرجع السابق ، ص١٥٠ .

٦- ابن منظور ، المصدر السابق ، م٢٠ ، ص٣٢٣ .

٧- الطبرى : تفسير القرآن المسمى جامع البيان ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، ج٥ ، دار المعارف ، القاهرة . ١٣٧٤ - ١٣٧٩ هـ ، ص٣٣ .

٨- الزبيدى ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص٣٠٥ .

٩- المصدر نفسه ، ج٣ ، ص٢٠٠ .

١٠- ابن هشام ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ص٣١٧-٣٥٥ ، ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، تحقيق: الأستاذين إحسان عباس وناصر الدين الأسد ، مراجعة الشيخ أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ص١١٤-١٣٣ .

١١- ابن هشام : المصدر السابق ، ج٣ ، ص٣٦٧ ؛ ابن حزم : جوامع السيرة ، المصدر السابق ، ص١٢٣ .

١٢- ابن هشام : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٥٨ .

١٣- أحمد ابراهيم الشريف ، المرجع السابق ، ص ص٣١-٣٢ .

١٤- الأصفهانى ، المصدر السابق ، م١٣ ، ص ص١٣٧-١٣٨ .

١٥- الأصفهانى : المصدر نفسه ، م١٧ ، ص٩٤ .

١٦- ابن منظور ، المصدر السابق ، مجلد ٩ ، ص٤٩ .

١٧- أحمد ابراهيم الشريف ، المرجع السابق ، ص ص٣١-٣٦ .

١٨- الربيدى ، المصدر السابق ، ح٢ ، ص٢٥٤

١٩- تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) : ترجمة ابراهيم الكيلانى ، طبعة دار الفكر ، دمشق ، د.ت، ص٢٥

٢٠- نفسه .

٢١- حسن حلبى ندوات حول نظرية الدولة فى الفقهين الوضعى والدينى ، كلية الحقوق والعلوم السياسية والإدارية ، الجامعة اللبنانية ، السنة الجامعية (١٩٨٧+١٩٨٨)، ص٧٢ .

٢٢- حسن حلبى ، المرجع السابق ، ص٢٤ .

٢٣- المرجع نفسه ، ص٧٤ ، يراجع بهذا الخصوص أيضا : "النظم السياسية" للدكتور "ثروت بدوى" المرجع نفسه ، ص٢١ .

٢٤- الفحذ أفخاد : هى الرجل والبطن : أهل الرّجل وخاصته ، المنجد فى اللغة والإعلام ، المرجع السابق.

٢٥- حسن مروة . "النزاعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية" ، ج١ ، دار الفارابى ، بيروت ، ١٩٧٨، ص٢٥ .

٢٦- ابن سعد : المصدر السابق ، ج١ ، ص٧٠ .

٢٧- لا منس : مجلة المشرق ، عدد ٢ ، سنة ١٩٣٢ ، ص١١٠ .